المحاضرة الثانية: ماهيّة الأدب

1. مدخل نظري:

رغم شيوع كلمة (أدب) منذ أقدم العصور بيد أنّها من أكثر المصطلحات غموضاً وضبابية، "فكلمة أدب العربيّة مثل كلمة (littérature) بالفرنسيّة (وما اشترك معها في أصل الاشتقاق) كلمتان ملتبستان معلومتان إحساسا وحدسا ومجهولتان بنية واشتغالا"[1]، فكثير من المطّلعين على موضوع الأدب يعتقدون أنّهم عارفون به لكن لمّا يأتون إلى تعريفه أو تحديد تخومه يجدون أنفسهم في مأزق[2]، يظهر ذلك جلياً لما نطرح على طلبة قسم الأدب سؤال ما الأدب؟ نجد أنّ أكثرهم نباهة اهتماما بالأدب لا يملك تصوراً واضحاً للأدب، وحتى الأساتذة أثناء تدريسهم للأدب نجدهم يقدمون تعريفات متباينة له باختلاف المراجع التي يعتمدها كلّ أستاذ أو الخلفيّة الفكرية والفلسفيّة التي ينطلق منها في تحديد تعريفاته.

وفيما يخص الباحثين والمنظرين نجد أنّ موضوع طبيعة الأدب شغل حيّزا معتبراً من نقاشات منظري الأدب وحتى من النقاد، ويرجع ذلك إلى الاختلاف الكبير بينهم في تحديد ما الذي يعدّ أدبا وما الذي لا يُعدّ أدباً، فقد شكّلت ماهية الأدب سؤالاً جوهريا بالنسبة لهم[3]، وطرحوا في سبيل ذلك كثيرا من الأسئلة عسى يصلوا إلى تحديد ماهية الأدب ومن جملة هذه الأسئلة نذكر:

- ما الأدب؟
- وما الذي يميز الأعمال الأدبية عن غيرها؟
- ما الذي يجعل الأدب متميّزا عن النشاطات الإنسانية الأخرى؟
- وما طبيعة الأدب؟
- وما الذي يجعل من الأدب أدباً؟

---

[1]. محمد العمري، نظرية الأدب في القرن العشرين، ط02، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2005 ، ص03.

[2]. ديفيد كارتر، النّظرية الأدبية، تر: باسل المسالمه، ط01، دار التكوين، دمشق، 2010، ص10.

[3]. ينظر جوناتان كولر، مدخل إلى النظرية الأدبية، تر:مصطفى بيومي عبد السلام، ط01، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، ص39.

هل ثمة عنصر جوهري أو علامة فارقة تشترك فيها الأعمال الأدبية؟

اختلفت الآراء حول تحديد طبيعة الأدب من باحث إلى آخر ومن مذهب إلى مذهب ومن هذه الآراء نذكر:

1. **الأدب كلّ شيء مطبوع أو قيد الطبع:** يرى هذا الاتجاه أنّه يمكن أن ندرج تحت مسمى الأدب كلّ عمل طُبع أو هو قيد الطبع. وهو رأي بعيد عن الصواب فما طُبع أو هو قيد الطبع يمكن أن يندرج ضمن مباحث ومجالات أخرى لا علاقة لها بالأدب مثل: (الكتب التاريخية والسياسية والاقتصادية...). كما أنّ هذا الرأي يلغي بعض الأنماط الأدبية غير المدوّنة مثل الأدب الشعبي (أسطورة، شعر، قصص...إلخ).

2. **الكتب العظيمة:** يرى رأي آخر أنّ الأدب هو الكتب العظيمة والخالدة عبر التاريخ، وعليه يجب أن "نقصره على الكتب العظيمة التي تشتهر لشكلها الأدبي أو تعبيرها مهما كان موضوعها"[1]. وهو رأي فيه مآخذ كبيرة؛ فالكتب الخالدة تنتمي إلى مباحث متنوعة ومجالات معرفية عديدة، وحسب هذا المنظور يمكن اعتبار مقدمة **ابن خلدون** والكليات في الطب **لابن رشد** كتباً أدبية رغم أنّها ليست كذلك. كما أنّه يُقصي الأعمال الأدبية غير الخالدة وغير المعروفة.

3. **ما يحكم عليه أفراد المجتمع أنّه أدب:** حيث يميل فريق من منظري الأدب إلى وضع تحت مُسمى الأدب كلّ ما يتفق عليه أفراد المجتمع أنّه أدب؛ فالعرف هو الذي يحدد ما هو أدب وما ليس أدب فـ"هو مُعطى اجتماعي يُعالج أدباً مجموع النصوص التي تُعرفها الأحكام الثقافيّة بوصفها شيئاً يخص الأدب"[2]. وتحديد طبيعة الأدب لا تنبع من أصله ولا ترتبط به، إنّما ترتبط بأفراد المجتمع ورأيهم فيه، "فما يهم قد لا يكون من أين أتيت بل كيف يُعاملك الناس. وإذا قرروا أنّك أدب فسوف يبدو أنّك أدب، بصرف النظر عمّا تظن نفسك"[3].

---

[1]. رينيه ويليك، أوستن وارين، نظرية الأدب، تر: محي الدين صبحي، ط02، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981، ص20.

[2]. جوناتان كولر، مدخل إلى النظرية الأدبية، تر: مصطفى بيومي عبد السلام، ص40

[3]. تيري إيجلتون، مقدمة في نظرية الأدب ، تر: أحمد حسان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1991، ص20.

ما يؤخذ على هذا الرأي هو أنّ رأي المجتمع يتغيّر بتغيّر الأزمنة والعصور، وما كان يعتبر أدبا في عصر لا يُعتبر كذلك في عصر آخر، كما أنّ الذوق الجماعي عنصر غير ثابت ومتغير فما يُنظر إليه أنّه فنّ في مجتمع لا يُنظر إليه كذلك في مجتمع آخر . "إنّ الناس، مثلما قد يعاملون عملاً على أنّه فلسفة في أحد القرون وعلى أنّه أدب في القرن الذي يليه، أو العكس، قد يُغيرون رأيهم فيما يعتبرونه كتابة ذات قيمة"[1].

4. الطابع التخييلي: يرى بعض المنظرين أنّ الأدب يمكن تحديده من خلال طبيعته التخييلية؛ أي بربط هذا المفهوم "بفن الأدب، أي على الأدب التخييلي الإبداعي"[2]، "ويُمكن أن يعود المفهوم الغربي الحديث للأدب، بوصفه كتابة تخييلية، إلى المنظرين الألمان في أواخر القرن الثامن عشر"[3]. رغم أنّ هذا الرأي يقترب من تحديد طبيعة الأدب إلاّ أنّه غير دقيق كما أنّ الخيال والطابع الفني قد يوجدان في بعض الأعمال غير الأدبية، مثل المسرح والسينما والرسم...إلخ.

5. الأعمال المبنيّة على التناص: يعتبر بعض المنظرين أنّ جوهر الأدب يكمن في تناص الخطابات الأدبية بعضها عن بعضٍ، حيث "أشار المنظرون المحدثون إلى أنّ الأعمال الأدبية منسوخة أو محررة بكاملها من أعمال أخرى؛ أيّ يمكن صناعتها من خلال أعمال أخرى تشربتها، وتكررها، وتتحداها، وتحولها"[4].

لا يمكن اعتبار التناص أساساً لتحديد طبيعة الأدب رغم أنّه عنصر مهم فيه؛ فالتناص نجده حتى في الأعمال غير الأدبية مثل الخطب السياسية والتحليلات الاقتصادية، والإعلانات الإشهارية.

6. الطابع الجمالي: يميل كثير من الباحثين في المجال إلى إدراج تحت مُسمى الأدب "كلّ الأعمال التي تغلب عليها الوظيفة الجمالية، وإن كان بوسعنا أن نعترف بوجود عناصر جمالية

---

[1]. تيري إيجلتون، مقدمة في نظرية الأدب، ص23.

[2]. رينيه ويليك، أوستن وارين، نظرية الأدب، ص21.

[3]. جوناتان كولر، مدخل إلى النظرية الأدبية، تر:مصطفى بيومي عبد السلام، ص40.

[4]. المرجع نفسه، ص52.

كالأسلوب والتأليف في أعمال ذات غرض غير جمالي، ومختلفة عنه تمام الاختلاف، كالرسائل العلميّة والأطروحات الفلسفيّة والمواعظ"[1]، فالوظيفة الجمالية هي الوظيفة الأساسية والمقوّم الأبرز بالنسبة للأدب وتحديد طبيعته يجب أن ترتبط بطابعه الجمالي، حيث يُشكل الجانب الجمالي عماد العمل الأدبي ما جعل هذا الفريق من منظري الأدب يجعل من معيار الجمالية أساس الحُكم على الأدب من غيره[2]، وقد تبلورت فكرة المعيار الجمالي في تصنيف الأدب في نهاية القرن الثامن عشر وعبّر عن هذه الفكرة بجلاء **موريتس** بقوله: "تكمن فحوى الجميل الحقيقي في أنّه لا يعني الشيء سوى نفسه، ولا يقصد سوى نفسه ولا يتمالك غير نفسه"[3].

لكن المأزق الذي يقع فيه هذا التصنيف هو وجود كثير من الأعمال الجمالية التي لا يمكن إدراجها تحت مُسمى الأدب مثل: السينما والمسرح والرسم والنحت...إلخ، وحتى من مجالات مختلفة قد تبدو بعيدة عن الفن، فالجمال والطابع الفنيّ نجده في العِمارة والبستنة والتطريز والطبخ وغيرها من الأعمال البشرية، فالعالم يعج بالإنتاجات البشرية الجميلة والفنّية التي لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن نصنفها ضمن الأدب.

7. **الاستعمال المميّز للّغة:** يرى فريق كبير من منظري الأدب أنّ تحديد طبيعة الأدب يجب أن يرتبط بمادته التي يُبنى منها والتي هي اللّغة، فهذه الأخيرة هي التي تحدد طبيعته وهويته، يقول: **رينيه ويليك، أوستن وارين:** "وأبسط وسيلة لحلّ المسألة هي في تمييز الاستعمال الخاص للّغة في الأدب، إنّ اللّغة مادة الأدب مثلما أنّ البرونز والحجر مادة النحت، والألوان مادة الرسم، والأصوات مادة الموسيقى"[4]، يقترب هذا الرأي من تحديد الأدب بصفة دقيقة، فماهية الشيء تتحدد من مادته ومادة الأدب هي اللّغة، لكن اللّغة التي نتحدث عنها

[1]. رينيه ويليك، أوستن وارين، نظرية الأدب، ص24.

[2]. ينظر جوناتان كولر، مدخل إلى النظرية الأدبية، تر:مصطفى بيومي عبد السلام، ص52/51.

[3]. تزفيتان تودوروف، مفهوم الأدب ودراسات أخرى، تر: عبود كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2002، ص10.

[4]. رينيه ويليك، أوستن وارين، نظرية الأدب، ص21.

ليست اللّغة الجامدة والهامدة إنّما اللّغة الفنيّة المحمّلة بالرموز والقائمة على التخييل والتي تفيض بالدلالات والقائمة على التشكيل الفني.

يقول **جوناتان كولر** في هذا السياق: "إنّ الأدبيّة تقع في معظم الأحوال داخل نظام اللّغة التي تجعل الأدب متميّزاً عن اللّغة المستخدمة لأغراض أخرى. إنّ الأدب يصبح اللّغة التي تُبرز اللّغة نفسها: أيّ تجعلها غريبة، تُلفت انتباهك إليها، ولذلك فإنّك لن تستطيع أن تنسى أنّك تتعامل مع لغة مشكّلة في طرق غريبة"[1].

تقوم اللّغة الأدبية على التنويع في التراكيب والتجديد المستمرّ في الأبنية والتشكيل كما أنّها تقوم على التجديد في التصوير والتعبير المبنيان على الخيال، حيث يقول **محمد العمري** في هذا السياق: "وقيست اللّغة في الأدب بالصورة في التشكيل والصوت في الموسيقى"[2].

لكن ما يجب ألاّ يغيب عن الباحث أنّ اللّغة ليست مادة هامدة كالحجر الذي يوجد خاماً في الطبيعة والفنان يبدع فيه كيفها يشاء، فاللّغة من إبداع الإنسان وهي محمّلة بتراثه الثقافي ومشحونة بفكر وفلسفة المجموعة اللّغويّة.

يوجد فرق كبير بين لغة الأدب ولغة العلم على هذا الأساس يمكن أن نفرّق بين الأدب وغيره "ففي الأوّل تشديد على الإشارة نفسها، على الرمز الصوتي للكلمة. وقد وضعت جميع أنواع الصنعة لتلفت النظر إليه كالوزن والسجع وأنماط صوتية مكرورة"[3]، بينما لغة العلم تميل إلى المباشرة والدقة، فعبارة (تبخرت الأحلام) في الأدب تتميّز بالإيحاء وتوالد الدلالات، فالتبخر الذي يشير إليه الأديب تبخر مجازي، بينما عبارة (تبخر الماء) التي يوظفها العالم في المختبر فهي تبخر حقيقي، ما يجعل اللّغة الأدبية تتميّز بكونها "أشد إيغالاً في البنية التاريخية للّغة، فهي تشدد على وعي الإشارة ذاتها، ولها جانبها التعبيري"[4].

---

[1]. جوناتان كولر، مدخل إلى النظرية الأدبية، تر:مصطفى بيومي عبد السلام، ص47.

[2]. محمد العمري، نظرية الأدب في القرن العشرين، ص04.

[3]. رينيه ويليك، أوستن وارين، نظرية الأدب، ص22.

[4]. المرجع نفسه، ص23.